البلاغة العربية فى دور نشأتها

تأليف الدكتور سيد نوفل

بقلم الأستاذ على العمارى

هذا الكتاب يؤرخ الدور الأول للبلاغة العربية ، وقبل أن أتحدث عنه أحب أن أقول إن البلاغة العربية تنوء بظلم فادح ، فكل فن ينال قسطاً غير يسير من عناية العلماء ، وهى وحدها التى ظلت قروناً عديدة تضطرب فى دائرة ضيقة من قواعدها السكاكية ، فدراستها فى معاهد التعليم على اختلاف أنواعها فى مصر وفى غير مصر لا تبعد كثيراً عن هذا النهج القديم ، والتأليف فيها مشدود إلى هذا المنهج نفسه بأمراس كتان ، حتى الطريقة الأدبية التى عنى بها بعض العلماء ، وخصوصاً قبل عصر السكاكى لا تنال حظها من الدراسة والتأليف ، ولهذا فكل كتاب يؤلف فى علوم البلاغة على نمط جديد نعتبره خدمة جليلة لهذه العلوم ، والكتب المؤلفة فيها محدودة تعد على أصابع اليدين وبعضها لا غناء فيه ، فلا تزال البلاغة العربية مجاهل يسلكها طلاب المعرفة من غير دليل ، ويقتفون مثانيها ومعانيها على غير هدى ، ولا بد من جهود جبارة ومن عمل دائب ، مع إخلاص وصدق حتى أن تقعد على أسس قويمة خالصة من تلك الشوائب الكثيرة التى تعقد مسائلها ، وتعكر مناهلها .

والكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه عالج شأناً من شئون البلاغة المهمة ، عالج البلاغة فى إبان نشأتها ، وتحدث عنها وهى فى لفائف المهد ، تباركها أيد قليلة ، وتربت عليها برفق وحنان ، وتغذيها بما تستطيع أن تقدمه لها فى تلك العهود البعيدة . والكلام فى تاريخ نشأة البلاغة ليس حديث عهد بالدراسة ، ولكن أقلاماً تناولته ، وأظن أن أول من تناول هذا التاريخ صاحب المالى الأستاذ الشيخ على عبد الرازق فى كتاب أسماه (الأمالى) ومن الذين كتبوا فيه الأستاذ الشيخ أمين الخولى أستاذ البلاغة العربية فى الجامعة المصرية فى كتابه (فن القول) . وقد قرأت رسالة فى هذا الموضوع للأستاذ الشيخ أبى الوفا المراغى مدير المكتبة الأزهرية . غير أن الدكتور نوفل زاد على هؤلاء أنه ركز موضوعه فى البلاغة عند الجاحظ ، والكتاب مقسم إلى قسمين : القسم الأول تحدث فيه عن البلاغة قبل عصر الجاحظ ، وقد سجل فيه جهود العلماء والأدباء والمتكلمين والمعلمين ومجالس النقد فى نشأة البلاغة ، والقسم الثانى تحدث فيه عن جهود الجاحظ فى البلاغة ، وهذا القسم يعتبر جديداً ، ويا حبذا لو اقتصر المؤلف على هذا القسم ، فإنه موضوع بكر ، وقد بسط القول ووفاه ، ولو سمى كتابه (البلاغة عند الجاحظ) لأصاب المحز ، وطبق المفصل — كما يقولون — على أن القسم الأول من كتابه جاء تكراراً لما كتبه العلماء ، وفيه بسط يعتبر من فضول القول ، فقد أخذ الأستاذ على نفسه أن يترجم لكل من له حكمة فى البلاغة أو إشارة إليها من قريب أو بعيد ، ترجم لأبى بكر وعمر ومعاوية ، وترجم للعتابى ومهل بن هرون وشبيب بن شبة وعبد الحميد وابن المقفع ، وجعل كلامهم فى فصل مستقل ، وكان يمكن أن يكتب فصلا يذكر فيه آراء هؤلاء فى البلاغة ، ومدى تأثير هذه الآراء فى نشأة علومها ، وهل يترجم لواصل بن عطاء لأنه ألف كتابين يحتمل أن يكونا فى البلاغة ، أو لأن الجاحظ نسب إليه القول بأن الخطابة فى حاجة إلى البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة ؟ فإذا تجاوزنا الرجال إلى الموضوعات وجدنا فصولا لا حاجة بالكتاب إليها كالفصل الذى عنوانه (العصر الجاهلى) ولو نقل منه كلمة أكثم بن صيفى ، واصطناع الكهان فسجع إلى الفصل السابق لاستغنى عن هذا الفصل ، وكذلك الفصل الذى يليه لا حاجة إليه ، وما دخل حديث القرآن أو الرسول عن البيان فى نشأة البلاغة وليس فيه مما يمس البلاغة إلا الحديث عن مذهب الرسول فى القول ، وهو كلمات ، ولو أنه صح لنا أن نرسم للمؤلف المنهج لقلنا : إن القسم الأول الذى ينتهى بصفحة ٩٢ كان يكفى فيه عشر صفحات ، فصل يجمل فيه القول عن أثر النقد فى البلاغة ، وأظن المؤلف لن يزيد شيئاً

عما كتبه الدكتور طه ابراهيم فى كتابه (تاريخ النقد عند العرب) — كما فعل — مع شىء كثير مما لا حاجة إليه ، وفصل يتحدث فيه عن المدارس التى درجت البلاغة فى ظلها ، ويكتفى فى هذا الفصل بجهود المتكلمين واللغويين والنحاة والأدباء . أما الفصل الثالث فيتتبع فيه آراء السابقين للجاحظ فى البلاغة ، ويترجم لاثنين منهم أو ثلاثة كأبى عبيدة ، ثم يتحدث عن كتابه ، وكل هذا لا يستغرق عشرين صفحة ، وقد استغرق فيه المؤلف تسعين صفحة !

على أن المؤلف فاته أن ينوه بأثر عالمين جليلين فى البلاغة ، وهما من أوائل العلماء قولا فيها ، أحدهما الخليل بن أحمد وقد تحدث عن الجناس والمطابقة والاستعمال المجازى ، والآخر سيبويه وقد تحدث فى (الكتاب) عن مجاز الحذف ، وعن التأخير والتقديم ، إلى مباحث أخرى تمس البلاغة .

أما القسم الثانى ، فهو لب الكتاب ، وقد جعله المؤلف بيت القصيد فى كتابه ، فإنه قال فى المقدمة : « ولما كان الجاحظ هو مؤسس علم البلاغة العربية وجامع مسائلها لم يكن مناص من اتخاذه الأساس الأول لهذه الدراسة » . وقد وفق كل التوفيق فى دراسة البلاغة الجاحظية وبلغ الغاية ، ولا نملك إلا الثناء المستطاب على هذا الجزء من الكتاب ، ولو أردنا أن نصور عمله لما وجدنا أوفى من تصويره هو لجهوده قال : « ولما كان — يريد الجاحظ — أكثر معاصريه استطراداً ، وأبعدهم عن مراعاة النظام فى التأليف ، فقد كان من العسير على من يبحث موضوعاً عنده أن يركن إلى كتاب معين ، وكان لا بد لدارس بلاغته من قراءة جميع كتبه ، وجمع المتفرق فيها ، والمقابلة بينه وتفسيره ، إذ كثيراً ما يبدو متناقضاً ، وهذا ما صنعت ، قرأت ما بأيدينا من كتبه ، وجمعت النصوص التى ورد فيها ذكر البلاغة أو أى اصطلاح من اصطلاحات علومها ، أو لفظ من ألفاظها ، أو معنى من معانيها ، وحاولت أن أصور هذه الاصطلاحات كما تدل عليها تلك النصوص المبعثرة » . ولم يفته أن يتحدث عن بعض معاصرى الجاحظ وعن بعض الذين جاءوا بعده ، وإن كان حديثه إشارات عابرة .

وقصارى القول فى جملة هذا الكتاب أن الجزء الأول منه سابغ فضفاض ، وكان من الواجب أن يركز ويقتصر فيه على الأغراض الرئيسية فى الموضوع . أما الجزء الثانى ، فقد بلغ فيه الغاية ، أجاد وأفاد ، لكن بقيت لنا تفصيلات نحب أن نراجع المؤلف فيها ونطارحها للبحث والدراسة ، ونستفض الطرف عن الأغلاط الجزئية ، وإنما نتناول مسائل ذات أهمية :

١ — تحدث المؤلف عن قصة نقد النابغة لحسان بن ثابت فى بيته المشهور :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وما كان من قول النابغة له : أقللت جفانك وأسيافك ، وقلت يلمعن بالضحى ، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المدح ؛ وقلت يقطرن من نجدة دما ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم ؛ ثم يقول المؤلف : « وقد يقال إن هذه الروايات ضعيفة — على ما قرراين رشيق من شهرة حديث النابغة ، لكنها تلائم طبيعة الحياة الفنية ، فيمكن الاطمئنان إلى وقوعها » .

ونقول إن الحديث مشهور ، ومشهور كذلك أنه موضوع ، ولسنا نلف وندور ، ولكنا نضع هنا قول الدكتور طه ابراهيم فى هذه القصة ، فلنر فيه بلاغاً ؛ قال بعد ذكر هذه القصة واختلاف وجوه النقد فيها : « وكل ذلك تأباه طبيعة الأشياء ، وكل ذلك يرفض رفضاً علمياً من عدة وجوه :

١ — فلم يكن الجاهل يعرف جمع التصحيح ، وجمع التكسير ، وجموع الكثرة والقلة ، ولم يكن له ذهن علمى يفرق بين هذه الأشياء ، كما فرق بينها ذهن الخليل وسيبويه ، ومثل هذا النقد لا يصدر إلا عن رجل عرف مصطلحات العلوم ، وعرف الفروق البعيدة بين دلالة الألفاظ ؛ وألم بشىء من المنطق .

(البقية فى العدد القادم)

على العمارى

ظهر حديثا

وحى الرسالة